

عودتهم إداة لمدينهم؟

بقلم الياس بجاني

مسؤول لجنة الإعلام في المنسقية العامة للمؤسسات اللبنانية الكندية

من هو العميل ومن هو الوطني؟ سؤال لا بد لنا اليوم من طرحه مجدداً على جميع الشرائح في وطننا الأم وبلاد الانتشار، التجمعات السياسية والدينية، القضاء اللبناني وعلى كافة القيادات والمراجع الذين أجازوا لأنفسهم على قاعدة الغالب والمغلوب وضع معايير تحدد العمالة والوطنية تتعارض مع روحية شرعة حقوق الإنسان وتناقض ما أوصت به كافة الكتب السماوية.

فإحفاقاً للحق، إنصافاً للعدل، ورفعاً للغبن الذي أصاب فئة كبيرة من أهلنا الجنوبيين الأبطال لا بد من إعادة طرح هذا الملف بموضوعية تامة بعيداً على أي تعصب، فتوية، حقد، ومناطقية أو تحزب. ما نسعى إليه هو أولاً إعادة الحق لأصحابه ورد الاعتبار لهم، وثانياً الاستفادة من التجربة على أمل أن لا نقع في شباكها مجدداً لا حاضراً ولا مستقبلاً.

إن الذي يتابع أخبار عودة المئات من أهلنا الجنوبيين إلى وطنهم عن طريق الناقورة آتين من إسرائيل بعد أن كانوا لجأوا إليها مكرهين عقب انسحاب جيش هذه الأخيرة من أرضهم في ٢٤ أيار سنة ٢٠٠٠، لا بد وأن يسأل: لماذا يعود هؤلاء الناس وهم يعلمون علم اليقين أنهم سيعتقلون، ويحاكمون بتهمة العمالة؟ أفليس الأفضل لهم لو بقوا في غربتهم ووفروا على أنفسهم الإهانة والمذلة والسجن؟ أما الجواب الصارخ الآتي من أعماق ضمائر ووجدان العائدين هؤلاء فيقول: سامح الله من ظلمنا، تجنى علينا وعيرنا بما هو فيه. فنحن لو خيرنا بين الجنة ولبنان فإننا سنختار لبنان.

لقد قاوم أهل الجنوب، وتحديداً سكان فيما كان يسمى بالشريط الحدودي ظلم وتعديات واحتلال الأقرباء والبعداء المتعددي الجنسيات والانتماءات على مدار ٢٥ سنة. لقد رفضوا ترك أرضهم وبيوتهم أو التفريط بحبة من تراب جنوبهم الغالي. قاوموا وصبروا ولم يستسلموا رغم تخلي الحكومات اللبنانية المتعاقبة عنهم وتركهم فريسة لأطماع ومخططات الذين أشعلوا نار حروب الآخرين في بلاد الأرز ولا يزالون يؤججونها بحقدهم وتبعيتهم وولاءاتهم غير اللبنانية. نعم لقد تعاملوا مع الواقع الذي فرض عليهم من قبل إسرائيل وغيرها من القوى الإقليمية والدولية والمحلية رغماً عن إرادتهم، لكنهم لم يكونوا يوماً عملاء لإسرائيل أو لغيرها، والفرق كبير، وكبير جداً بين التعامل من أجل البقاء بهدف الصمود وبين العمالة والخيانة.

تري، هل معيار العمالة والوطنية الذي يُطبق على سكان الشريط الحدودي هو نفسه الذي يُطبق على كافة اللبنانيين وعلى الحكام العرب، وتحديدًا السوريين منهم؟ لا نعتقد ذلك، وإلا لما كان بقي واحداً من هؤلاء الحكام والزعماء ورجال الدين خارج السجون أو غير معلقاً على حبال المشانق. فسكان الشريط لم يذهبوا إلى مدريد ليعترفوا بإسرائيل كما فعل كافة حكام العرب وفي مقدمهم حكام دمشق، ولا هم فاوضوا في أوسلو لإقامة الحكم الذاتي الفلسطيني والتخلي عن المقاومة، ولا هم فاوضوا في كمب دايفد أو تبادلوا التمثيل الدبلوماسي مع الدولة العبرية كما فعلت أم العروبة مصر ومن ثم الأردن وتونس وقطر والمغرب وغيرهم، كما أنهم بالتأكيد لم يبيعوا الجولان (مذكرات الرئيس السوري أمين الحافظ) كما فعل نظام البعث السوري، وتطول القائمة وتطول.

وهم أيضاً لم يسعوا لإقامة دولة مذهبية، بل حملوا السلاح مضطرين لرد الهجمات عن بيوتهم وأطفالهم وللدفاع عن هويتهم وليس لهدم الكيان اللبناني وضرب تعايش بنييه.

إن عودة أبناء الجنوب ورفضهم البقاء في إسرائيل أو في غيرها من البلدان، هي عودة تُدين حكام لبنان والسياسيين فيه وكافة الظالمين من رجال الدين والدنيا الذين تجنوا عليهم، كما تثبت دون أدنى شك تحيز القضاء اللبناني وهيمنة القوى المحتلة وواجهاتها المحلية على معظم قراراته التي أمست مسيسة بامتنياز منذ سنة ١٩٩٠. العودة هذه هي بالواقع إدانة صارخة لكل من اتهم سكان الشريط الحدودي، وما يزال، بالعمالة والخيانة. لقد فضل هؤلاء الأشراف السجن والإهانة في بلادهم، على العيش بعيداً عن ترابه المقدس الذي سقوه بعتاء من دمهم وعرقهم. لقد عادوا ليساقوا إلى السجون لأن الحرية في مفهومهم هي حرية الفكر والإيمان والقرار وبالتالي فهم أحرار كانوا، وأحرار سيقفون حتى في غياهب سجون الظلم، فيما الذين يتهمونهم بالعمالة يحاكمونهم هم سجناء بقرارهم المصادر وبتبعيتهم، بجهلهم وعمى بصيرتهم وإن كانوا خارج أسوار السجون. لقد فضل الجنوبي زؤان لبنانه على قمح غيره من البلدان.

لقد صدق الإمام علي بقوله:

"إخترُ أن تكون مغلوباً وأنت منصف، ولا تختَرُ أن تكون غالباً وأنت ظالم".

"واعلم أن الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك، فان كان لك فلا تبطر، وان كان عليك فلا تضجر فاصبر فكلهما سينحسر"